المحاضرة السادسة
التعليم في الجزائر ما قبل الاستيطان الفرنسي

1-المساجد:

من المعلوم ان المسلمين في كل زمان ومكان كانوا يتخذون من المساجد والأماكن الملاصقة له مراكز لتعليم صبيانهم ، القراءة والكتابة ولم تكن البلاد السودانية استثناء عن ذلك .

وقد لاحظ الرحالة هذا ومنهم حسن الوزان وأكدوا أن الجزائريون استخدموا المساجد أماكن للتعليم [1].

لعب المسجد دورا هاما في حياة المسلمين عامة والتعليم خاصة ، فقد كان المسجد عبر قرون مدرسة وبيت الجماعة ودار الضيافة [2].

اهتم التجار والدعاة والأمراء في حواضر الجزائر لأمر بناء المساجد كوسيلة لتوطيد الاسلام في الاقاليم الجديدة ، ونجد الكثير من الرحالة والمؤرخين الذين ناولوا ،بناءه ورواده وأهميته ودوره .

بدأ أهل الجزائر يهتمون بالتعليم منذ ان اخذ الاسلام يشق طريقه إليهم وازداد مع هذا الانتشار والتوسع بناء المساجد في الحواضر الاسلامية، حتى أضحى المسجد جزء من الظاهرة العمرانية للحواضر الجزائرية .

كان لكل حاضرة مسجدها الكبير الذي يجمع فيه السكان وقد نظمت المدن الاسلامية من حيث تخطيطها لتلاؤم حياة الطوائف الاجتماعية ، وفقا للأغراض الاقتصادية ،من ذلك بناء الحوانيت التي تبيع الكتب والعطور ، ثم تستدير الأبنية الأخرى حول المسجد لقوم فيها أعمال التجارة والصناعة، وتكون القبائل المهاجرة الى حواضر الغرب الاسلامية من العرب والبربر[3]، قد ساهموا بالقسط الوافر في إدخال صورة جديدة للمساجد في سرعة انجازها وإعطائها الصورة المفضلة لها .

---

[1]. عز الدين عمرو موسى :المرجع السابق، ص119.

[2]. الخطيب البغدادي: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم ، تلخيص وترتيب سامي الصقار ، ط1،دار المريخ ،الرياض 1401-1981ص 69

[3]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 21.

المحاضرة الرابعة والخامسة

مؤسسات التعليم ووسائله ما قبل الاستيطان الفرنسي

1-المساجد:

من المعلوم ان المسلمين في كل زمان ومكان كانوا يتخذون من المساجد والأماكن الملاصقة له مراكز لتعليم صبيانهم ، القراءة والكتابة ولم تكن البلاد السودانية استثناء عن ذلك .

وقد لاحظ الرحالة هذا ومنهم حسن الوزان وأكدوا أن الجزائريون استخدموا المساجد أماكن للتعليم [1].

لعب المسجد دورا هاما في حياة المسلمين عامة والتعليم خاصة ، فقد كان المسجد عبر قرون مدرسة وبيت الجماعة ودار الضيافة [2].

اهتم التجار والدعاة والأمراء في حواضر الجزائر لأمر بناء المساجد كوسيلة لتوطيد الاسلام في الاقاليم الجديدة ، ونجد الكثير من الرحالة والمؤرخين الذين ناولوا ،بناءه ورواده وأهميته ودوره .

بدأ أهل الجزائر يهتمون بالتعليم منذ ان اخذ الاسلام يشق طريقه إليهم وازداد مع هذا الانتشار والتوسع بناء المساجد في الحواضر الاسلامية، حتى أضحى المسجد جزء من الظاهرة العمرانية للحواضر الجزائرية .

كان لكل حاضرة مسجدها الكبير الذي يجمع فيه السكان وقد نظمت المدن الاسلامية من حيث تخطيطها لتلاؤم حياة الطوائف الاجتماعية ، وفقا للأغراض الاقتصادية ،من ذلك بناء الحوانيت التي تبيع الكتب والعطور ، ثم تستدير الأبنية الأخرى حول المسجد لقوم فيها أعمال التجارة والصناعة، وتكون القبائل المهاجرة الى حواضر الغرب الاسلامية من العرب والبربر[3]، قد ساهموا بالقسط الوافر في إدخال صورة جديدة للمساجد في سرعة انجازها وإعطائها الصورة المفضلة لها .

---

[1]. عز الدين عمرو موسى :المرجع السابق، ص119.

[2]. الخطيب البغدادي: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم ، تلخيص وترتيب سامي الصقار ، ط1،دار المريخ ،الرياض 1401-1981ص 69

[3]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 21.

إن تقدم الاسلام في فترة التاريخ الحديث والمعاصر قد دعا الولاة والحكام الى بناء عدد كبير من المساجد لإستعاب العدد الهائل من المصلين والمتعلمين وتنافس التجار والحكام والخيرين على بناءها وكان هؤلاء يتباهون بالإنفاق، على صيانتها وترميمها ومنهم من كان ينفق الذهب.

يعتبر بناء المساجد عمل جماعي يساهم فيه كل سكان المدينة، حيث يختار الأعيان والعلماء موقع بناء المسجد ن ويشترك الشباب في العمل بنقل مواد البناء، والنساء يحملن الماء ، ويحضر بعضهم الملاط ويعد هذا عملا خيرا لا يتقاضى عليه العمال أجرا وعادة ما يتبرع الأغنياء والتجار بالمال او المواشي لإعداد الطعام اللازم للعمال ، وأحيانا يصاحبه الاحتفال على الطريقة التقليدية .

عند البناء يراعى ارتفاع المسجد الذي يتراوح بين 3.5الى 5متروطوله الذي يصل الى عشرات الأمتار وذلك حسب عدد السكان ، وعدد الأبواب ودرجة الإنفاق عليه [1].

إن مساحة المسجد ومئذنته والمساحات المحيطة به تختلف من حاضرة الى اخرى ، فغالبا ما يكون في كل حضارة مسجد جامع يتمتع بمساحة كبيرة ومئذنة يتراوح علوها بين المتر الى الثلاثة أمتار وفناء واسع به أشجار.

أما في القرى ، فتنتشر المصليات ذات الأشكال المربعة الشكل الخارجي مسقوفة بالأغصان ن والقش أمامها مساحة كبيرة للصلاة في الهواء الطلق ، وقد وصف المساجد معظم الرحالة ومنهم هنري بارث في القرن 19 م ، ووصف طول وعرض ومساحة المساجد ، وروي أن بعض المساجد كانت تأخذ هندستها من مساجد المشرق وخاصة من مكة.

ولقد كانت المساجد تضيق بالمصلين منذ أيام ابن بطوطة الذي زار بعض المدن الجزائرية في منتصف القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، اذ يقول ان يوم الجمعة إذا لم يبكر الناس الى المسجد لا يجد المتأخرون أين يصلون.

وكانت المساجد الكبرى بمثابة جامعات معاهد تعليمية كبرى، ومراكز ثقافية وتربوية حققت الأهداف المنوطة بها ، فتتلمذ فيها القضاة والأئمة والفقهاء والعلماء ، ولم تكن أوضاع المساجد والتعليم هذه لتختلف عن سائر مدن الجزائر ، عن حال تلمسان مثلا ، فكل حاضرة لها دورها الثقافي والعلمي الذي ساهم في تنشيط الحياة العلمية .

---

[1]. نعيم قداح : المرجع السابق ،ص 148.

كان للمسجد حرمة لدى السكان، بلغت درجة الاحترام والتقديس حيث كان من كان يستجير بالمسجد أو دار الخطيب لا يناله شر ولو كان من الحاكم ، كما كانت القبور تبنى بجوار المساجد وحوله ، وتلك عادة اهل المغرب فالمغاربة لا يدفنون أمواتهم إلا في رحاب مساجدهم وجوامعهم.

ويبدوا أن اغلب هذه المساجد تلمسان وبجابة وقسنطسنة وغيرها لم تبقى آثارها قائمة الى اليوم ، وذلك راجع الى عامل البيئة والمواد التي تشيد بها المساجد فهي مبنية بالطين المجفف والأخشاب والقش ، وهي مواد لها مدة حياة لاتكون في الغالب طويلة على عكس المساجد المبنية في الأقطار الاسلامية الأخرى ، والتي تعد الصخور المعدلة أهم ركائزها .

2- الكتب والمكتبات :

من المعروف ان المكتبات من أهم وسائل التعلم فهي مصدر من مصادر المعرفة تحفظ فيها العلوم و الثمار خبرات السابقين فتجعل حياة من يعتمد عليها امتداد لحياة السابقين ، وبقدر ما يعتمد على ذلك تتفاضل الامم ويقاس تقدمها من هنا كان اهتمام المسلمين بالمكتبات ودور العلم كي تسهم في تطور الحركة العلمية.

إن الباحث في مجال الحياة العلمية في عصر من العصور يجد المؤشر على تطويرها يربط بكتب وتراث العلماء ومدى شيوع ثقافة الكتاب والمكتبات ولذلك كان إقبال السكان حواضر الغرب الإفريقي على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات من المؤسسات الفاعلة في دفع ازدهار هذه الممالك ، وبناء حضارة خاصة بها وقد تبين ان الدعاة والفقهاء والتجار كانوا يحملون معهم الكتب ولعل اقلهم حظا ذلك الذي يحمل معه مصحف القرآن الكريم ولذلك لا عجب ان نجد المكتبات من المؤسسات الفاعلة في دفع ازدهار هذه الممالك ، وبناء حضارة خاصة بها وقد تبين ان الدعاة والفقهاء والتجار كانوا يحملون معهم الكب ولعل اقلهم حظا ذلك الذي يحمل معه مصحف القرآن الكريم ولذلك لا عجب ان نجد ان المكتبات الضخمة الخاصة والعامة توجد في المساجد والقصور وبيوت الأعيان والعلماء ، فكان التأثر واضحا من قبل القبائل العربية والبربرية التي استقرت في تلك البلاد.

لقد انتشرت المكتبات التي اقتناها العلماء والأثرياء وكانت تصرفات طلبة العلم كوجه من أوجه عمل الخير، والبعض عدها صدقة جارية.

واشتهر على العلماء أنهم كانوا لا يبخلون بكتبهم عن الراغبين في الاستعارة منها وكانت تدور حركة نسخ نشطة ليحصل عن طريقها بعض الناس على نسخ من الكتب التي يريدونها.

فقد دخلت حواضر الجزائر ، كتبا في مخلف العلوم الخاصة بالثقافة العربية الاسلامية ففي عهد الأتراك كان السلاطين يتسابقون لاقتناء الكتب الدينية وخاصة للمذهب المالكي من اجل تعزيز الحياة الثقافية بالجزائر.

ومما ساعد على كثرة الكتب رغم عدم ابتكار المطابع ما كان يتسم به المرابطون على الثغور من نسخ الكتب بالمجان مما أدى إلى وجود المخطوطات وسهل على المتعلمين وجود الكتب [1] ، بالإضافة إلى تعلم أهل المنطقة فنون الخط وصناعة الورق وان كان على الطريقة التقليدية وكانت المخطوطات والكتب تباع بأسعار أعلى من أسعار السلع التجارية الأخرى.

وفي عهد الدولة الزيانية ازداد الاهتمام اكثر بالكتب والمكتبات وهذا راجع الى رسوخ الاسلام اكثر خاصة لدى الطبقة الحاكمة ، وأعطى الحكام الأتراك أهمية كبيرة للكتب ، فكان من مواطنيهم ناسخ لنقل المخطوطات وشراء الكتب بأغلى الأثمان ، فقد بلغ حبهم للكتب ان يشترى الحاكم قاموسا بمبلغ ثمانين مثقالا [2]. وجاء في الروايات من اشترى نسخة من القاموس بثمانون مثقالا.

إن هذه المعلومات التاريخية لتدل على مدى ازدهار الحياة العلمية ، وإقبال الناس على شراء الكتب ونسخها وهو ما أدى إلى ثراء المكتبات الخاصة بأمهات الكتاب حتى تكونت الأسر والعائلات الكبيرة، التي ارتبط اسمها بالمكتبات العامرة الموجودة بمساكنهم الخاصة ، حتى أصبح هذا التقليد شائعا وازداد تجذرا مع ظهور الزوايا والطرق الصوفية حيث مثل شيوخها وزعمائها مصدر الفتوى وخزانة العلم والكتب .

إن تجارة الكتب كانت اكبر تجارة في الجزائر وقد ازدهرت الثقافة الاسلامية وكانت جامعة تلمسان تخرج علماء في آداب اللغة العربية والعلوم ، وتشير الروايات التاريخية الى ان الكتب التي كانت مصدر رزق وسلعة تجني منها الأرباح إذ يقول حسن الوزان " يجني الخطاطون ربح يفوق كل بقية السلع.

---

[1]. محمد محمد زيتون: المرجع السابق 121.
[2]. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 163.

إن هذه الروايات تدل على كثرة العلماء والمتثقفين وعادة ما يرتبط هذا بتوفر الكتب والمكتبات [1] ، و التي تحوي ذخائر عديدة من الكتب ويجعلنا ندرك ان الكتب متوفرة والمكتبات عامرة خاصة لدى العلماء قدوة الأمة ، فكانت عملية التبادل والإعارة سائدة ومشهورة في حواضر الجزائر إذ يروي السعدي ان الطالب يقصد العالم يطلب كتبا فيعطيها له من غير معرفة ، وهذا ما يؤكد تشجيع العلماء لطلبة العلم أو ربما العرف السائد آنذاك الذي يذم البخيل في تقديم المساعدة لطالب العلم احتوت المكتبات على المخطوطات كما أشار الى ذلك حسن الوزان، فكان سكان الحواضر ينسخون الكتب الأصلية التي لا يملكونها وبأعداد كبيرة إذ تعذر شراؤها ، وها هو احمد بابا التنبكتي الذي كان من أعظم مؤرخي السودان الذي وضع في ما قيل (70) كتابا في مختلف العلوم والفنون وكان يملك مكتبة تحتوي على ألف وست مائة (1600) عنوانا .

أما عن محتويات الكتب فهي إسلامية في عمومها تتناول السيرة النبوية والأحاديث مثل صحيح البخاري ومسلم وكتب السيوطي وكتب الفقه على المذهب المالكي خاصة ، مثل رسالة ابن أبي زياد القيرواني بالإضافة إلى كتب الأدب والشعر والكتب الجغرافية والتاريخية والكتب العلمية البحث في الفلك والطب .

وقد ذكر بول مارتي المتخصص في دراسة الاسلام في افريقيا الغربية سلسلة من الكتب العربية التي وجدها في مطلع القرن العشرين في المكتبات الاسلامية نذكر منها على سبيل المثال كتاب الجواهر الحسان لأحمد بابا التنبكتي، وشجرة اليقين للشيخ أبي الحسن الأشعري وشرح بانت سعاد لكعب بن زهير وكتب العالم السيوطي وكتب مولد النبي لسعيد بن جبير وكتاب مقامات الحريري وكتاب المصباح المنير ومقصورة ابن دريد وألفية ابن مالك وقطر الندى ، وإحياء علوم الدين للغزالي وموطئ مالك

ان الباحث في تاريخ الكتب والمكتبات يجد السبب في اهتمام سكان الجزائر بها ، وهو حث الاسلام على طلب العلم ، الذي اكتسب قداسة وارتبط بحسن إسلام المرء ولذلك لا عجب في ان نجد هذه المكتبات موصولة بالمساجد والزوايا والقصور.

---

[1]. حسن الوزان: المصدر السابق ،ج2، ص 54.